التضاد في سورة الكهف
أنماطه ودلالاته

ID No.3678

(PP 1 - 15)

https://doi.org/10.21271/zjhs.24.5.1

صالح ملا عزيز

قسم اللغة العربية/ كلية التربية / جامعة صلاح الدين ـ أربيل

dr_salih99@yahoo.com

الاستلام: 2020/07/20

القبول : 2020/08/23

النـــشر: 2020/12/10

ملخص

هذه دراسة جمالية في سورة الكهف، تستجلي ظاهرة أسلوبية لها قيمتها في تلوين الخطاب بالسمة الأدبية التي تزيد من طاقة الإيحاء وتقلص من طاقة التصريح، وهي ظاهرة التضاد في أنماطه ودلالاته، واقتضت طبيعة الدراسة توزيع المادة العلمية على محورين اثنين مسبوقين بالتمهيد ومتبوعين بالنتائج، فأما التمهيد فيُوجز القولَ في دور التضاد وفاعليته في الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة، وفي المحور الأول يُستَعرض التضادُ اللفظي البسيط من خلال تحليل شواهده في سورة الكهف واستخراج دلالاته وإيحاءاته، ثمَّ يعقبه المحورُ الثاني الذي يفصِّل القولَ في التضاد الخفي المركَّب بالوقوف على نماذجه في السورة على المستوى الأفقي، وتنتهي الدراسة بتلخيص أهم النتائج التي توصّلتْ إليها في رحلتها العلمية.

الكلمات المفتاحية: التضاد، القرآن الكريم، سورة الكهف، القصص، الدلالة.

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، وبعد، لقد أصبحتْ قراءة القرآن الكريم من الوجهة الأدبية والجمالية ضرورةً حضارية ومعرفية، لأنَّ الإنسانَ هو أساس التلقي في الخطاب القرآني، وهو في تغيير دائم في تفكيره وفي وعيه وفي ذوقه وفي كشوفاته الثقافية، كلُّ ذلك يفرض على المتلقي أن يقارب النص القرآني بآليات عصره وبالمعطيات الحديثة على أن لا يصطدم بالمقتضيات اللغوية والثوابت الدينية، وهذا لا يعني تقييد القراءة وتحديد إطارها بقدر ما يعني انفتاح الذهن على النص وإنقاذه من لحظة القراءة الساكنة بآليات حديثة تُلبِّي الحاجة الدينية وتُغَذّي الحاسة الفنية، واستجابةً لهذه الحاجة المعرفية جاءت هذه الدراسة آملةً أن تفتح ميداناً خصباً لدراسات أخرى أرحب مجالاً وأوثق ربطاً بين تراث القدامى وجهود المحدثين.

أهمية البحث

تأتي أهمية هذه الدراسة من أنها تربط القرآن الكريم بالمفاهيم الفنية الصحيحة في الأدب والنقد، فتصبح وسيلةً لربط الدراسات الأدبية بالدراسات القرآنية من جهة، وتعيد النظر في خارطة التضاد في البلاغة والنقد في التراث العربي لتوسيع دائرة الرؤيا وتجاوز الجانب الشكلي والزخرفي المعهود في الدراسات التقليدية من جهة أخرى، ومن فوائد هذه الدراسة أيضاً بيانُ مزيدٍ من الإعجاز البلاغي والبياني وتربيةُ الذوق الفني في المتلقي، فوق أنها تفتح آفاقاً أوسع للكشف عن جوانب أخرى من الإعجاز كانت غائبة في أذهان القدامى، لا لقصور في الفهم والاستيعاب، وإنما لأن المتاح من الطروحات العلمية لم يكن ليسمح بمزيدٍ مما كان من الإنارة البحثية.

أهداف البحث

يسعى هذا البحث لتحقيق أهداف أهمها:

1 ـ الوقوف على جمالية الخطاب القرآني والكشف عن ملامح إعجازه البلاغي.

2 ـ تنمية أذواق الأكاديميين للإقبال على الدراسات القرآنية من الوجهة الأدبية.
3 ـ إمتاع النفوس عن طريق تذوق النص القرآني وتحليله أدبياً وبلاغياً.
4 ـ تصحيح الفكرة القائلة إنّ تحليل النص القرآني أمرٌ محفوفٌ بالأخطار، لقداسة النص ولصعوبة الكلام على أطراف الاتصال وحيثياته في عملية التلقي.
5 ـ الردّ على من يزعم أنَّ الحديث عن الدراسات القرآنية أصبح كلاماً يُعاد لا جديد في طرحه ولا جدوى من تكراره.

الدراسات السابقة

ومن الإنصاف العلمي أن يشار في هذا المقام إلى أنّ هذه الدراسة في سورة الكهف مسبوقة بجهود الدارسين في إطار هذه السورة، لكنَّ أحداً ــ فيما أعلم ــ لم يسبقني إلى دراسة ظاهرة التضاد تحديداً في السورة، ومن أبرز هذه الدراسات (الصراع بين الإيمان والمادية ــ تأملات في سورة الكهف) للعلاَّمة أبي الحسن النَّدْوي، ثمَّ ضمَّ إليه أبحاثاً قرآنية أخرى، فتَغيَّر عنوانه إلى (دراسات قرآنية)، والكتاب أقرب إلى الجانب الفكري والتربوي منه إلى الجانب الأدبي، ورسالة ماجستير بعنوان (الطباق في سورة الكهف ــ دراسة تحليلية بلاغية) للباحثة نور عليمة قدَّمتها إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة علاء الدين الإسلامية سنة 2014، وعملها أشبه بالرصد والإحصاء دون التحليل الجمالي، وعليه مسحةٌ من التقليد والسطحية واضحة.

ومن الدراسات المعقودة على سورة الكهف من الوجهة الأسلوبية والبلاغية (دراسة أسلوبية في سورة الكهف) رسالة ماجستير للباحث مروان محمد سعيد عبد الرحمن سنة 2006 في جامعة النجاح الوطنية، ورسالة ماجستير الموسومة بـ(ألوان البديع في سورة الكهف) للباحث سلمان سالم الحسوني سنة 2016 في جامعة الشرق الأوسط، وكلتاهما لا تستأثر بدراسة ظاهرة التضاد على وجه التعيين، وإن كان فيهما إشارات سريعة لا تتجاوز التشخيص والرصد إلى التحليل الأدبي والبلاغي والاستقصاء الدقيق، من هنا رأى الباحثُ أنّ ظاهرة التضاد تستحق الوقفة المفصَّلة والدراسة المعمَّقة باستيعاب كلّ أطيافها والغوص على دلالاتها وإيحاءاتها من خلال التحليل الجمالي والتذوق الأدبي.

التمهيد

*** فاعلية التضاد في النص الأدبي**

التضاد في جوهره يرتدُّ إلى الكون ومظاهره المتقابلة، وهو جزء من المنظومة المعرفية للإنسان في تفكيره وفي تواصله، ومن ثَمَّ أصبح التضاد مكوِّناً أساسياً في التعبير اللساني، لا على أنه عامل جمالي يجمع بين المتنافرات في اطّراد وتناسق فقط، وإنما لأنه يعبرّ كذلك عن شبكة معقدة من الظواهر الكونية والانفعالات النفسية والمشاهد الطبيعية والنماذج الإنسانية والمواقف الحياتية في سياق لغوي يعمل على إبراز التناسق وتنشيط الخيال وتحريك الذهن وإثارة المشاعر وإمتاع الحسّ الجمالي وإغناء النص بسمة الانسجام والتناسب، ذلك أنَّ الانسجام بين أجزاء النص لا يأتي فقط من الجمع بين المتناظرات واقتران الشبيه بالشبيه، "فكما يتم التلاحم عن طريق التشابه يتمُّ كذلك عن طريق التضاد، لأن المعاني يستدعي بعضها بعضاً، فمنها ما يستدعي شبيهه، ومنها ما يستدعي مقابله، بل إن الضدّ أكثر خطوراً على البال من الشبيه وأوضحُ في الدلالة على المعنى منه" (عتيق، 1985، ص 90 ـ 91).

ولعلّ السمة الجمالية للتضاد آتية مما يضفيه على الأسلوب من بهاءٍ وجلالٍ يعملان على تعميق الإحساس بالمعنى وترسيخه في الأذهان، لأنَّ المتضادين إذا تواردا على النفس كان الإحساس بهما أتمَّ وأوضحَ، ناهيك عن أنَّ التضاد إذ يجمع بين النقيضين فإنما "يسمح للمتلقي أن يعبرِّ عن جسر طويل ممتدٍّ بين هذين النقيضين، وذلك الجسر تتعدَّد فيه وعليه درجات تتفاوت من معنى النقيضين، فتدنو من هذا الطرف بمقدار بعدها عن الآخر، وفي ذلك ما فيه من معاني الإحاطة والشمول ورحابة الرؤية" (الساحلي، 1998، ص 247).

ولأمرٍ ما عدَّ الدارسون المحدثون التضادَ من مقومات التعبير الأدبي، حين أفادوا أنّ "ازدياد درجة التضاد ثم البلوغ إلى التضاد المطلق قادر على توليد طاقة أكبر من الأدبية، ولذلك فإنَّ مولِّد الأدبية في الصورة وفي اللغة هو التضاد لا المشابهة" (أبو ديب، 1987، ص 47)، ومن ثمَّ فإنَّ الثنائيات الضدية تشغل حيّزاً واسعاً في التحليل البنيوي، إذ إنَّ البنيوية لا ترضى إلا إذا استطاعت توزيع النص على تقابلات ثنائية من نوع الأعلى والأدنى، والنور والظَّلام، وإظهار منطق هذه التقابلات (إيغلتون، 1995، ص 229)، ولأهمية هذه الثنائيات في تفكير البنيويين يرى بعضهم "أنَّ التحليل الأدبي يبدأ عند نقطة التضاد الثنائي بين الوحدات الدالة" (حمودة، 1998، ص 271).

ولقد اتَّخذ القرآنُ الكريم التضادَ وسيلةً للتعبير عن آفاقه المعرفية، وقصص السابقين، وأهوال القيامة، وطبيعة الإنسان، ومشاهد الطبيعة، لِما يمتلكه من قدرةٍ على إبراز المواقف المتناقضة معاً حتى يتمكَّن المتلقي من إجراء المقارنة الواعية بين النقيضين فيميّز القيمَ الصحيحة من الزائفة.

وهذه السمة الجمالية تكاد تطَّرد في السور القرآنية جميعاً بنسب متفاوتة، وتنوّعُ مقاماتِها يحدِّدُ طبيعةَ التضادِ وشكلَه البلاغي، مثلما يُظهِر الموقفُ الخطابي درجاتِ الوضوح والتعقيد، وسُلَّمَ الافراد والتركيب، وخطوطَ التقابل والاختلاف، ولعلَّ خصوصية التضاد القرآني هذه تُغري الدارسين في مجال البلاغة الأدبية بإعادة النظر في خارطة التضاد في البلاغة العربية لكي يُستخرَج على ضوئه مبادئ جمالية أوسع استيعاباً وأمتع تحليلاً في عملية التذوق الفني.

وسورة الكهف من السور القرآنية التي اشتملت على بنية التضاد طولاً وعرضاً، طولاً على مستوى الكلمات والتعابير يحكمه التعاقبُ اللغوي والتتابع الزمني على خط تعبيري واحد لا يتخلَّف، وعرضاً على مستوى الموضوعات والمقاصد الأساسية يضبطه النظامُ العام والانسجام التام على أساس بناء السورة وهيكلها المعماري، وعليه فنقسِّم التضاد إلى نوعين أساسيين: التضاد اللفظي البسيط، والتضاد الخفي المركَّب.

المحور الأول: التضاد اللفظي البسيط

فأمَّا التضاد في نمطه البسيط الواضح فيتجلَّى فيما نرصده من الأمثلة والشواهد الآتية:

القرآن الكريم يقوم بوظيفة الإنذار والتبشير معاً، إنذار الكافرين ببأس شديد، وتبشير المؤمنين بنعيم مقيم، إذ يقول الحق: {ٱ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2)** } (الكهف 18: ١ – ٢)، وفي ذلك من حسن الإنصاف وصحة التوازن وشمول الرؤية ما لا يخفى.

وفي الجمع بين (السموات) و(الأرض) في قوله تعالى: {ٱ **وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14)** } (الكهف 18: ١٤)، على طريق التضاد دلالةُ شمول الربوبية لكلّ ما في الكون، وفي ذلك تعريض من فتية أهل الكهف ببطلان ادّعاء الحاكم الظالم للألوهية، ويتأكَّد هذا الإيحاء إذا علمنا أنَّ من أَدْعياء الألوهية من يعتقد أو يُوهِم الناس أن يعتقدوا أنَّ في السماء إلهاً وفي الأرض إلهاً.

وليس ببعيدة من هذا دلالةُ التضاد بين (السموات) و(الأرض) في قوله تعالى: { **قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26)** } (الكهف 18: ٢٦) على شمولية العلم الالهي المطلق لكلّ ما في الكون من أمور الغيب، والعلم وحقوله الدلالية من الكلمات المفاتيح في سورة الكهف، لِما يلقيه من ظل خاص على أحداث القصص ومسارها، وعلى مقاصد السورة وأهدافها.

ومثله قوله تعالى: { **مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51)** } (الكهف 18: ٥١).

أما التضاد بين (السماء) ــ بالافراد ــ و(الأرض) في قوله تعالى: { **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (45)** } (الكهف 18: ٤٥)، فجاء عنصراً بنائياً يستكمل أبعاد المثل المضروب لحقيقة الدنيا وسرعة زوالها، فالماء النازل من السماء لا يظهر أثره ولا تتبين قيمته إلا إذا أمسكته الأرض ليستمد منه النبات حياته وينمو بسببه، فصارت السماء إمداداً وأصبحت الأرض نتاجاً، وكلاهما ذكره ضروري لاستكمال عملية التصوير الأدبي.

وقد يمتدُّ هذا الضربُ من التضاد من أول الآية إلى ما قبل نهاية الآية اللاحقة، فيُلقي بظله المقصود على كثيرٍ من الكلمات للإيحاء بدلالات أخرى وراء صريح العبارات، كما في قوله تعالى: { **وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18)**} (الكهف 18: ١٧ – ١٨)، ومن شأن هذا التضاد أن يجمع بين حركة الشمس في طلوعها وحركتها في غروبها في لقطة تصويرية واحدة، وكأنَ عدسة الكاميرا تدور معها سريعةً في اتجاهين متقابلين، وأن يحدّد اتجاهَ الكهف في علاقتها بحركة الشمس في السماء، ويرسم بدقة المظهر الخارجي لأبطال القصة، وهو مظهرٌ يُوهِم عابراً باليقظة ويُخفي في الحقيقة طولَ الرقدة، مع الإشارة إلى حركة صحية لم يصل إليها علم الطب إلا حديثاً، وهي حركة تقليب جسد المريض أو العاجز عن الحركة يمنةً ويسرةً،

لكي لا يلتصق الجسد بالأرض لفترة طويلة، فيصاب بقرحة الفراش، وأخيراً جاء التعقيب على هذه الأحداث المعجزة عن طريق التضاد كذلك { **مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا** } تماشياً مع الخط العام للتضاد، وتجليّاً للمشيئة الالهية المطلقة التي يردّ إليها الأمر كلّه في الهداية والضلال.

ويلمح التضاد اللفظي بين الذكر والنسيان في قوله تعالى: { **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (24)** } (الكهف 18: ٢٣ – 24)، إلى ما يطرأ على النفس الإنسانية من حالات الافراط في النسيان، فيظن المرء أن الأخذ بالأسباب وحدها تكفل له ما يعزم عليه في المستقبل فيغفل عن ربه ويعتمد على نفسه، ولو قال: (واذكر ربك) فحسب، لكان أمراً بالذكر على الاطلاق من غير الإشارة إلى تشخيص تلك الحالة النفسية، ثم إن مجيء (النسيان) بعد (الذكر) أنسب لموقف الرسول ρ حين "سألته قريش عن المسائل الثلاث: الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين ــ حسبما أمرتهم به يهود ــ قال لهم رسول الله ρ : غداً أخبركم بسؤال جوابكم، ولم يقل: إن شاء الله" (ابن عطية، 2007، ص 562/5)، أي فنسي ولم يستثنِ، فجاء النسيان بعد الذكر في الآية تعقيباً على هذا الموقف وتصحيحاً له، وتقدَّمَ الأمرُ بالذكر على النسيان فقال: { **وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ** }، ولم يقل: (وإذا نسيتَ ربك فاذكره)، للدلالة على أن الأصل في أحوال المؤمن هو الذكر ودوام الاتصال بالله وتعليق الأمور بمشيئته تعالى، وأنَّ النسيان من جملة عوارضه، وأن تقديم جواب الشرط على فعل الشرط يُلقي في النفس الاسراعَ في تقديم العلاج قبل بيان الخلل، فإذا ذُكِر الخللُ بعد ذلك فلا تخاف النفسُ ولا تقلق، لأنها اطمئنت إلى العلاج وتعرَّفت على الوقاية من قبل، وفي ذكر لفظ (ربك) ــ دون لفظ الجلالة (الله) أو إعادة الضمير إليه ــ مضافاً إلى كاف الخطاب من حسن التربية وجمال التلطف ما فيه، وفي تكراره مرة أخرى في قوله (يهديني ربي) ــ مع امكان الاستغناء عنه بإعادة الضمير عليه ــ من حلاوة الذكر ودوام الاتصال ما يدفع المؤمن إلى الارتفاع إلى هذا المرتقى.

ويدلّ التضاد بين (الغداة) و(العشي) على معنى الدوام في قوله تعالى: {**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28)** } (الكهف 18: ٢٨).

ولعلَّ الزمخشري (538 هــ) يلمح إلى هذا المعنى حين يقول في تفسير قوله تعالى: (يدعون ربهم بالغداة والعشيّ): "أي دائبين على الدعاءِ في كلِّ وقتٍ" (الزمخشري، 2012، ص 653/2)، فحمل التضاد على أحوالهم وعلى الدوام، لكنّ الآلوسي (1270 هــ) كان أوضح منه كلاماً في الاشارة الى دلالة التضاد على الدوام عندما قال في تفسير الآية: "أي يعبُدُونه دائماً، وشاعَ استعمالُ مثلِ هذه العبارة للدوام، وهي نظيرُ قولِهم: ضرَبَ زيدٌ الظهرَ والبطنَ، يريدون به ضربَ جميعَ بدنِه" (الآلوسي، 2010، ص 309/15).

ومن غير التضاد في قوله تعالى: {**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (31)** } (الكهف 18: ٢٩ – ٣١)، لا تتحقق العدالة الالهية لإتاحة الفرصة التامة أمام إرادة الإنسان لكي يختار ما يشاء من طريق الايمان أو طريق الكفر، ومن رحمته سبحانه بعباده أن عرض لهم ــ وهم لا يزالون في الدنيا ــ مصيرَ المؤمنين ومصير الكافرين من خلال استحضار مشهدين متقابلين في المستقبل البعيد، ترغيباً في الإيمان وثمراته في الجنة، وتخويفاً من الكفر وعواقبه في النار، وبهذا نجد أن السببين ينتجان تقابلاً وتضاداً بين المسبَّبين على أساس المبدأ القائل: الجزاء من جنس العمل، وهكذا:

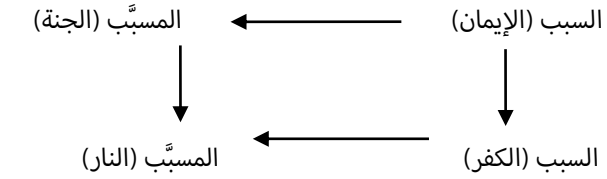

وفي التضاد المعقود بين صغائر الذنوب وكبائرها في قوله تعالى: { **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)** } (الكهف 18: ٤٩)، دلالة

الشمول والاحاطة والدقة التي نفقدها مع غياب هذا الإجراء البلاغي، وإنما تقدَّم ذكرُ الصغيرة للإشعار بمزيد من انزعاج المجرمين منها قبل رؤية الكبائر في سجل أعمالهم، فكيف إذا رأوا الكبائر وقرؤوها؟.

ومن أهل العلم من يذهب إلى أنَّ الصغيرة قُدِّمَتْ على الكبيرةِ اهتماماً بها، لينبِّهَ منها، ويدلَّ أنَّ الصغيرةَ إذا أُحصِيَتْ فالكبيرةُ أحرى بذلك، والعربُ أبداً تُقدِّم في الذِّكر الأقلَّ من كلِّ مقترنَيْنِ، نحو قولهم: القمرانِ، والعُمران، سَمَّوا باسم الأقلِّ، تنبيهاً منهم، فقُدِّمَ ذِكرُ الصغيرة؛ لأنَّها أهمُّ من حيث يتعلق التعجُّبُ من إحصائها، وعُطِفَتْ عليها الكبيرة؛ لإرادة التعميم في الإحصاء؛ لأنَّ التعميمَ أيضاً مما يثير التعجُّبَ، فقد عجبوا من إحاطة كاتبِ الكتاب بجميع الأعمال (ابن عطية، 2007، ص 616/5، وأبو حيان الأندلسي، 2015، ص 301/4، وابن عاشور، د. ت، ص 82/15).

وتكرَّر التضاد بين (الاستبشار) و(الإنذار) من جديد، لكنه جاء متبوعاً هذه المرة بإجراء التضاد بين (الحق) و(الباطل) في سياق ذكر وظيفة الرسل عليهم السلام وموقف أعدائهم من رسالاتهم في قوله تعالى: { **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (56)** } (الكهف 18: ٥٦)، ليتوازي مع ما ذُكِر من قبل في مطلع السورة من مهمة القرآن الكريم في التبشير والإنذار، إشارةً إلى وحدة المصدر في الإنزال والإرسال، وليتمَّ تنزيلُ العقيدة والشريعة في إطارهما النظري (الإنزال) على أرض الواقع في إطارهما العملي من خلال شخصية هؤلاء الرسل (الإرسال)، وذُكِر (الحق) بعد (الباطل) على سبيل التضاد اللفظي لبيان حقيقة الصراع بين الرسل وأعدائهم من جهة، وللتقليل من أهمية مجادلة الذين كفروا مع تقبيحها من جهة أخرى، تقليلها لأنها محاولة يائسة لا تستند إلى قوة الدليل ولا إلى منطق الفطرة، يوحي بذلك لفظ (الباطل) الدالّ على الزائل الذي لا يثبت مهما بدا للنظر القصير راسخاً لا يُستأصَل، وتقبيحها لأنها تسير في عكس التيار وتقاوم أصل الفطرة، ذلك أن (الحق) في مدلوله اللفظي يدلّ على الثابت الذي لا يتزحزح وإن بدا في الظاهر ضعيفاً لا يتمالك و مغلوباً يتراجع.

ويشير التضاد في قوله تعالى: { **قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88)** } (الكهف 18: 87 ــ 88)، إلى عدالة الحاكم المؤمن وحسن تصرُّفه في الرعيَّة بما يصلح أمر دنياهم ويضبط مملكتهم، فيُعاقَب المجرمُ على فساده ويُثاب المواطنُ الصالح على إحسانه، ولو اقتصر التعبير القرآني على ذكر الاقتصاص من الظالمين دون بيان موقفه من المؤمنين لرُجِّحَت كفة ميزان العدالة في يديه، فكانت عينه إذ ذاك على الأخذ على أيدي العصاة فقط، من غير أن يلتفت إلى المؤمنين فيكافئوا على نشر الاحسان للاستزادة منه والثبات عليه.

المحور الثاني: التضاد الخفي المركَّب:

وأما النمط الثاني من التضاد في سورة الكهف فهو التضاد الخفي المركَّب الذي يتمثل في الصراع الدرامي وفي مواقف الشخصيات وفي المشاهد السردية، هذا الضرب من التضاد لا يظهر إلا من خلال تحليل الوحدات والدوال إلى عناصرها الدلالية وإحالتها إلى وقائعها وأحداثها الخارجية، ومن حيثيات هذا الضرب من التضاد أنَّه يمتدُّ عمودياً وأفقياً، عمودياً على مستوى الفكرة الواحدة، وأفقياً على مستوى الثيمات المتنوعة، فيتنزَّل منزلة الجامع يربط بين شبكات المدلولات بعضها ببعض في السياق الأكبر.

ونستهلّ الحديث عن هذا النوع من التضاد بقصة أصحاب الكهف وما يتخلَّلُها من تضاد بين خطوطها العامة وجزئياتها الدقيقة، فالقصة في حدّ ذاتها هي "قصة الصراع بين الإيمان والمادية، أو قصة الصراع بين الاعتماد على الأسباب، وبين الاعتماد على خالق الأسباب، تنتهي بانتصار الإيمان على المادية، وصِدْق الاعتماد على خالق الأسباب، لقد آثر هؤلاء الفتية المؤمنون الإيمانَ على المادة، وآثروا الآجلَ على العاجل، وآثروا أن يعيشوا فقراءَ غرباءَ وهم مؤمنون، على أن يعيشوا أغنياءَ أو أمراءَ وهم كافرون" (النَّدْوي، 2010، ص 186)، وفي ذلك إيحاءٌ بانتصار القلة المؤمنة الضعيفة على الكثرة الكافرة القوية في مكة، وتلقينٌ للمؤمنين بإيثار الإيمان والعمل الصالح ودوام الاتصال بالله على كلِّ أنواع القوى المادية والسياسية والاقتصادية إن هم أرادوا الظفر بأسباب النصر وأرادوا كسر شوكة أعدائهم وتغيير موازين القوة على أرض الواقع.

وهذا الصراع يتمثل في التضاد بين الحق الذي أعلنه أصحاب الكهف في اعتزاز وجرأة، وبين الباطل الذي يدعو إليه السلطان الجائر صاحب السلطة الطاغية، فيقمع حرية الاعتقاد ويشدّد الخناق على حرية التفكير ويضيق ذرعاً بالاختلاف في الرأي والتنوُّع في الدين والأخلاق.

ومن التضاد الخفي في القصة قوله تعالى: { **فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12)** }،(الكهف 18: 11 ــ 12)، إذ يحيل قولُه (فضربنا على آذانهم) على معنى (أنمناهم)، ويحيل قوله

(بعثناهم) على معنى (أيقظناهم)، فهو تضاد على مستوى العمق لا السطح، ووظيفته القيام بعملية التطوير العضوي للهيكل السردي ودفع أحداثه إلى الأمام، فيرصد انتقالاً زمنياً طويلاً يطوي كثيراً من المسافات ويلخِّصُ الوقائع تلخيصاً يبعث على الإثارة والتشويق، لكن التعبير بالمجاز في الموضعين يُظهر دلائل القدرة الالهية في تعطيل حاسة السمع مؤقتاً، وفي تغيير قانون الحياة والموت في حق أوليائه للاستدلال به على البعث يوم القيامة.

ولمّا ضاقت البلاد على أهل الإيمان على سعتها، لجؤوا إلى الكهف في الجبل فراراً بدينهم من اضطهاد الملك الظالم كما يحكيه القرآن الكريم بقوله: {**وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا** } (الكهف 18: 16).

ويُلحظ التضاد بين ضيق الكهف وخشونته في الظاهر، وبين ما بسط الله عليه من رحمته، فاتسع على أصحابه، وأحاط بهم الرفق من كلّ جانب في الباطن، فإذا هم في سَعةٍ من العيش مع ضيق المكان، وإذا هم في رخاءٍ من الحياة على حرمانهم من رفاهية القصور والدور، وإذا هم في هدوء البال وراحة الضمير مع أنَّ القلق يطاردهم والتعب يضني أبدانهم، لأنَّ السلطة الغاشمة تلاحقهم وتبحث عنهم في كلّ مكان لتردّهم عن دينهم، فليس الغرض من التضاد إلا لفت الأنظار إلى آثار رحمة الله حين تنشر على الانسان والزمان والمكان، فالانسان ينشرح صدره فلا يشعر بالقلق، والزمان تتوقف حركته فلا يحس المرء فيه بوقع الأحداث، والمكان ينفسح مدَّ البصر فلا يُلتَفت إلى ضيق المساحة، يقول أديب المفسرين سيد قطب شارحاً جمالية التضاد من خلال أثر هذه الرحمة في إلغاء الحواجز المادية المتناقضة: "هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم، يستروحون رحمة الله، ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة، (يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ) ولفظة (يَنْشُرْ) تلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتدُّ ظلالها، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء، إنَّ الحدود الضيقة لتنزاح، وإن الجدران الصلدة لترقُّ، وإن الوحشة الموغلة لتشفُّ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق، إنه الإيمان" (قطب، 2019، ص 591/4).

وتعقيباً على القصة يوجّه القرآنُ الكريمُ الرسولَ ρ إلى ترك الجدل فيما لا طائل وراءه في شأن أصحاب الكهف، إذ يقول: { **سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23)** } (الكهف 18: ٢٢ ــ 23).

جاء التضاد في النص بين زمانين: الماضي السحيق، والمستقبل البعيد، فإذا كان التوجيهُ الأول يدعو الرسولَ ρ إلى ترك المِراء في أمر الفتية مع أهل الكتاب، لأن أمرهم غيبٌ أُسدِل عليه ستارُ الماضي، فإنَّ التوجيهَ الثاني ينهى في جزم وقوة الرسولَ ρ عن أن يجزمَ بفعل شيءٍ في المستقبل دون أن يعلِّقه بالمشيئة الالهية، لأن الغد محجوب عن الإنسان لا يعلم ماذا سيقع فيه حتى يصرّ على فعل الشيء، يقول سيد قطب مبيناً المناسبة اللطيفة بين التوجيهين على أساس التضاد: "وبمناسبة النهي عن الجدل في غيب الماضي، يردُ النهيُ عن الحكم على غيب المستقبل وما يقع فيه، فالإنسان لا يدري ما يكون في المستقبل حتى يقطع برأيٍ فيه" (قطب، 2019، ص 595/4).

ثمَّ إنَّ الطرف الثاني من التضاد (النهي عن الحكم على المستقبل) جاء استجابةً لملابسات نزول الآية، فكان بذلك رابطاً أسلوبياً بين وقائع الماضي، وحيثيات الحاضر في لحظة الاتصال، وفي التضاد نكتةٌ لطيفةٌ تجمع بين طرفي الزمان: الذاهبِ، والقادمِ، في مركز واحد، لتحصره في الذات العلية، وتنفيه عن الإنسان الضعيف ولو كان رسولاً نبياً، وهذا التضاد بدوره يحيل على تضاد أعمق بين علم الله الشامل الذي يخترق الحجب، وبين علم الإنسان القاصر الذي لا يتجاوز حدود حواسه.

وإذا انتقلنا إلى المقطع الثاني من السورة وهو قوله تعالى: {**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28)** } (الكهف 18: 28)، وجدنا أنَّ أمر الرسول ρ بالصبر مع فقراء المسلمين يقف على طرفي نقيض مع دعوة زعماء قريش لطرد هؤلاء الفقراء من مجلسه إذا كان حقاً يطمع في إيمانهم، كما أوضح سبب النزول ذلك، ودلالة هذا التضاد على اختلاف القيم الايمانية الصحيحة عن القيم الأرضية الزائفة جدٌّ واضحة، كما أن التضاد يتكفل بوصف الفريقين المتنافضين لابراز موقفهما من الدين والحياة ليكون أشدَّ إلزاماً للمتلقي وأدعى لإثارة عاطفته.

ومن التضاد المشهدي في جوّه العام ما نقرأه في قوله تعالى: {**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (31) } (الكهف 18: ٢٩ – ٣١).

أُتبِع الإيمانُ ببيان عاقبة أهله ترغيباً، وأُتبِع الكفر ببيان عاقبة أصحابه ترهيباً، في مشهدين متقابلين حتى في بعض جزئياتهما، فالإحاطة بالنار يقابلها الالتفاف بالأشجار والثمار، والزيت العكِر أو الصديد الساخن الذي يغصّ في الحلوق ويحرق البطون، يقابله الماء العذب الذي يجري تحتهم لا من تحت أشجارهم، والظالمون متكئون على سرادق من النار وتعلو وجوههم حرارة السعير، في مقابل المؤمنين الذين يتكئون على الأسِرَّة الجميلة وعليهمْ الثيابُ الناعمة وأنواعٌ من الزينة الفاخرة، وجاء التعقيب على الأول بقوله: (بئس الشراب وساءت مرتقفاً)، وعلى الثاني بـقوله: (نعم الثواب وحسنت مرتفقاً)، وناهيك عن التقابل بين الذم والمدح فإن في ذكر لفظ (مرتفقاً) مع الأول مشاكلة لفظية ساخرة تربط المشهدين أسلوبياً على نحو يجعلهما متناظرين دلالياً.

ويبلغ التضاد أقصى درجات التوتر حين يشتدُّ الصراع بين الرجلين في قصة صاحب الجنتين في قوله تعالى: {أ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44) } (الكهف 18: ٣٢ – ٤٤).

يأتي المثل المضروب تعقيباً على مشهدين متقابلين من مشاهد القيامة، وفي ذلك ربطُ مآلاتِ الناس يومَ القيامةِ بالقيم التي يعتقدونها في الدنيا، ومخاطبةُ عقولهم ببيان آثار اعتقادهم على حياتهم وسلوكهم في الدنيا غِبَّ إثارةِ وجدانهم بذكر مصيرهم في الآخرة، وسواء كانت القصةُ تمثيليةً رمزيةً أم واقعيةً حقيقيةً، فهي "تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله، وكلاهما نموذج إنساني لطائفةٍ من الناس: صاحبُ الجنتين نموذجٌ للرجل الثري، تذهله الثروةُ، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدةً لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه نموذجٌ للرجل المعتز بإيمانه، الذاكر لربّه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره" (قطب، 2019، ص 601/4).

إنَّ أساس التضاد في القصة يأتي من اختلاف هوية الرجلين، ومن تباين لغة الحوار، ومن طبيعة تفكيرهما، ومن الحكم على الأشياء، فالأول كافرٌ بربه جاحدٌ لفضله، والثاني مؤمنٌ بربه شاكرٌ لأنعمه، والأول في لغته تطاولٌ واستعلاء وغرور يداخله روح الأنانية (أنا أكثر منك مالاً وولداً)، والثاني ذو منطق عقلاني يفيض بالشفقة والحرص على مصلحة الآخر والنزوع إلى التواضع من خلال التذكير بالأصل، والأول تفكيره سطحي وآني ومادي بحتٌ ينظر إلى ما أوتي من النعم من خلال اللذة والمنفعة، والثاني بعيد النظر وذو تفكير إيماني خالص يزن المادة وأسبابها بميزان العقيدة والدين، والأول يحكم على قيمة الإنسان في عاجله وآجله بمظاهره وبما أوتي من مالٍ وبنين، والثاني يحكم على قيمة المرء بما يدين به من اعتقاد صحيح يصله بخالقه، فلا الأسباب تنسيه خالقه ولا نفسه تغريه بعلمه وقوَّته، ولعلّ الغرض من عقد هذا التضاد في القصة هو "أن المتاع الدنيوي الزائل ليس مظهراً للتكريم الرباني، والحرمانَ من هذا المتاع ليس مظهراً للهوان على الله" (الخالدي، 2015، ص 362).

ومن ألطف ألوان التضاد في قصة صاحب الجنتين أنَّ القرآن الكريم عبرَّ عن تمام الثمار بنفي الظلم عن الجنتين، فقال: (كِلْتَا الجنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً)، و"يختار التعبيرُ كلمةَ (تظلم) في معنى تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلمَ نفسَهُ فبطرَ ولم يشكر، وازدهى وتكبرَّ" (قطب، 2019، ص 602/4)، على حين أثبتَ الظلمَ لصاحبهما في قوله تعالى: (وَدَخَلَ جَنَّتَه وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِه)، فالجنتان لا تظلمان صاحبهما، ولا تظلمان الأُكُلَ والثمارَ كذلك، بينما هو ظالمٌ لتفسه، وظالمٌ لجنَّتَيْه، وهنا يعجب المتلقي كلَّ العجب من "جنَّة مكوَّنةٍ من زروعٍ وأعنابٍ ونخيل، كانت عادلةً، بحيث لم تظلِمْ، ولم تُخْفِ من ثمارها شيئاً، نباتٌ وترابٌ وجماد ينفي القرآن عنه الظلمَ، وإنسان مكوَّن من عقلٍ وروحٍ، وله مشاعر وعواطف وأفكار،

ومع ذلك كان ظالماً في حياته، ودخل هذا الإنسانُ الظالمُ جنَّتَه غيرَ الظالمة، فأخذ ثمارها التي قدَّمتها له بكرمٍ وسَخاءٍ، أخذها بظلمٍ وبغيٍ وبطر، عجيبٌ هذا الأمر: نباتٌ كريمٌ مِعطاء لا يظلم، وإنسانٌ بخيلٌ مغرور ظالمٌ" (الخالدي، 2015، ص 366).

وتعود خاتمة القصة على مطلعها بعلاقة التضاد أيضاً، ذلك أن المطلع يمهّد لإثارة الإحساس الجمالي في المتلقي بتقديم وصف خارجي للجنتين، وهما في غاية الجمال والازدهار وفي أوفر أحوال الإنتاج الزراعي، يقابله مشهدهما في الختام ــ حين حلَّ به الدمار ــ وقد صارتا أثراً بعد عينٍ، فلم يبقَ من الزروع والثمار خيرٌ يُتاح، أما الرجل فقد بدا في المطلع من خلال محاورته مع صاحبه المؤمن مستعظماً نفسَه، ومعتزاً بثروته وبرجاله، ومستبداً برأيه، يقابله في النهاية هيئة النادم الذليل الذي تخلَّت يده من كلّ حيلةٍ ذاتية ومن كلّ قوة خارجية.

وفي إثـــر هذا المشهد المــأساوي يـــعرض الـــقرآن الكـــريم في إطار المـــثل حـــلـقتين متقابلتين من حـلقات شريـــط الـدنيا في قـوله تـــــعالى: { **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (45)** } (الكهف 18: ٤٥).

حلقةٌ تبدو فيها الدنيا قائمة على أصولها، حين تجود السماء بمائها، وتتزيَّن الأرض بنباتها، ولا يكاد الخيال يتملَّى هذه الصورة القصيرة حتى يفاجأه القرآن الكريم بعرض الحلقة المضادة لتظهر فيها الدنيا في صورة النبات اليابس المصفَّر الذي لا قرار له في مهبّ الرياح، فتراه شدرات متفرقة، لا تقوم لها قائمة، وتقصير المشهدين المتقابلين باستخدام الجمل القصيرة، وربط بعضها مع بعض بفاء التعقيب الدال على التسريع، وطيّ بعض المراحل في الدورة النباتية، أمرٌ مقصودٌ ليوحي إلينا بقِصَر الحياة الدنيا وسرعة زوالها في لحظات، وآخر ما يبقى في الذهن من انطباعات الصورة الثانية هو حركة الرياح تذهب بالهشيم المحطَّم هنا وهناك، ليسبح الخيال مع هذه الحركات باحثاً عن الاستقرار، ذاهباً إلى المجهول.

ويستوحي ابن عاشور من التعقيب على المثل ما اشتمل عليه هذا الأخير من تقابل الأضداد، فيقول: "وجملةً (وكان اللهُ على كلِّ شيءٍ مُقتدِراً) جملةٌ معترضةٌ في آخرِ الكلام، موقعُها: التذكيرُ بقدرةِ الله على خَلْق الأشياءِ وأضدادِها، وجَعْل أوائلها مُفضيةً إلى أواخرها، وترتيبه أسبابَ الفناء على أسباب البقاء، وذلك اقتدارٌ عجيب، وقد أُفيدَ ذلك على أكمل وجهٍ بالعُموم الذي في قوله: (على كلِّ شيءٍ)، وهو بذلك العموم أشبه بالتذييل" (ابن عاشور، د. ت، ص 15 /76) .

ووجه اتصال المثل المضروب للحياة الدنيا بقصة صاحب الجنتين وتدميرها وحسرة مالكها كان على أساس اقتران النظائر وإلحاق الشبيه بشبيهه، ذلك أنَّ القصة جاءت لتقرّر أنَّ البقاء للقيم العليا وللمبادئ الصحيحة، وأنَّ الزوال نصيب كلّ مبدأ لا يقوم على التفكير الصحيح ولا يصدر عنه الصالح من الأعمال، ومردّ هذا التفكير السقيم زيادةُ التعلق بالدنيا، واعتبارُها أساس التقييم، والتمسكُ بأسبابها فحسب، من غير الالتفات إلى قوة كبرى تدير شؤون الدنيا وتمسك بأسبابها، ومن ثمَّ جاء المثل لتصحيح هذا التفكير من أساسه بتصوير سرعة زوال الحياة الدنيا وقِصَر متاعها، فالمثل يخاطب الوجدان ويمُتع الخيال بعد أن أقنعتِ القصةُ العقلَ وجاءت بالبرهان القاطع من الواقع.

وفي قوله تعالى: { **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46)** } (الكهف 18: 46)، نجد أنَّ التعبير القرآني يختار من زينة الدنيا أمتعها للعين وأبهجها للنفس: وفرة المال، وكثرة الأولاد، ويجعلهما متقابلين على طريق التضاد الخفي مع الأعمال الصالحة التي عبرَّ عنها بالباقيات الصالحات، في حين حكم على المال والبنين بأنهما زينة الحياة الدنيا، والزينة جمال خارجي لا يدوم طويلاً، ولا أملَ في بقائه، أما العمل الصالح فيبقى أثره في الحياة، ويدوم نفعه بعد الممات، فالمال والبنون قيمٌ زائلة فانية لا يرجو راغبها أملاً، ولا تستحق أن تُعقَد عليها الأحلام، والأعمال الصالحة قيمٌ باقية ثابتة لا يخيب طالبها رجاءً ولا يعدم بعد موته أثراً.

وفي تقديم (الباقيات) على (الصالحات) إبرازٌ لصفة البقاء ووضعها بجوار الزينة للإسراع في مقابلته بزوال الزينة، كما أنَّ في حذف موصوف (الباقيات) دلالة العموم ليشمل كلَّ ما هو صالح من النيات والأعمال والأقوال والعبادات، يقول ابن عاشور: "وَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ فِي تَرْتِيبِ الْوَصْفَيْنِ أَنْ يُقَدَّمَ (الصَّالِحاتُ) عَلَى (وَالْباقِياتُ)، لِأَنَّهُمَا وَإِنْ كَانَا وَصْفَيْنِ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ إِلَّا أَنَّ أَعْرَفَهُمَا فِي وَصْفِيَّةِ ذَلِكَ الْمَحْذُوفِ هُوَ الصَّالِحَاتُ... وَلَكِنْ خُولِفَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ هُنَا، فَقُدِّمَ (الْبَاقِيَاتُ) لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ مَا ذُكِرَ قَبْلَهُ إِنَّمَا كَانَ مَفْصُولًا لِأَنَّهُ لَيْسَ بِبَاقٍ، وَهُوَ الْمَالُ وَالْبَنُونَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ [الرَّعْد: 26] ، فَكَانَ هَذَا التَّقْدِيمُ قَاضِيًا لِحَقِّ الْإِيجَازِ لِإِغْنَائِهِ عَنْ كَلَامٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: أَنَّ ذَلِكَ زَائِلٌ، أَوْ مَا هُوَ بِبَاقٍ، وَالْبَاقِيَاتُ مِنَ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ مِنْهُ، فَكَانَ قَوْلُهُ: (فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ) [الْكَهْف: 45] مُفِيدًا لِلزَّوَالِ بِطَرِيقَةِ التَّمْثِيلِ، وَهُوَ مِنْ دَلَالَةِ التَّضَمُّنِ، وَكَانَ قَوْلُهُ:

(وَالْبَاقِيَاتُ) مُفِيدًا زَوَالَ غَيْرِهَا بِطَرِيقَةِ الِالْتِزَامِ، فَحَصَلَ دَلَالَتَانِ غَيْرُ مُطَابِقَتَيْنِ وَهُمَا أَوْقَعُ فِي صِنَاعَةِ الْبَلَاغَةِ، وَحَصَلَ بِثَانِيَتِهِمَا تَأْكِيدٌ لِمُفَادِ الْأُولَى فَجَاءَ كَلَامًا مُؤَكَّدًا مُوجَزاً" (ابن عاشور، د.ت، ص 77/15).

ومن صور التضاد ما يتجلَّى في الصراع بين الحق والباطل في قصة آدم عليه السلام وإبليس: { **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50)**} (الكهف 18: 50).

ثمة وجوهٌ من الصراع القديم والمعركة الخالدة بين آدم وأبنائه من جهة، وبين إبليس وذريته من جهة أخرى، فإذ يُكرَم آدم عليه السلام بسجود الملائكة له سجودَ تحيةٍ، يُهانُ إبليس باللعنة ويُطرَد من الجنة لخروجه على أمر ربه، والمفارقة الحادة تتجلَّى حين يتخذ المرءُ عدوّه القديم وليّاً يستبدل مودةً بمعاداة، هكذا نجد "أنَّ القصة القرآنية جاءت في أنواعها وتنوُّعها لترصد في صور مجسمة تلك المعركةَ الأبدية بين الخير وقادته، والشرّ وأهله، سواءٌ جاءت على هيئة المثل، أو جاءت في نسق تأريخي، أو عبرَّت عن الجانب النفسي في الإنسان، أو وَشَتْ بجوانب تعليمية تصقل العقل وتفتح الإدراكَ، أو أشارت في رمزية سريعة إلى قصص كانت خلف الرمز، أو سيقت لهدف العظة والعبرة، فهي في كلّ هذه الأنواع أداة راصدة بين حركتين كبيرتين: حركة الإيمان، وما يقابلها من حركة الكفر" (عبد العال، 1988، ص 8/2).

ويقول سيد قطب في سرّ إيداع هذا الصراع في الشكل القصصي في القرآن الكريم: "وكان من أغراض القصة تنبيه آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبين أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من كلّ هاجسة في النفس تدعو إلى الشرّ، وإسنادها إلى هذا العدو الذي لا يريد بالناس الخيرَ" (قطب، 2006، 154).

وفي قصة موسى υ مع العبد الصالح ألوانٌ من التضاد الخفي، بين العجلة والتأني، وبين العلم بالظاهر والعلم بالباطن، وبين "الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة" (قطب، 2006، 154)، وبين سعة النظرة في عالم الغيب وضيق الرؤية في عالم الشهادة، وبين الإصرار على ضبط النفس من أجل الإفادة العلمية والتأكيد على عدم الصبر لأن الأمر فوق الطاقة والتحمل، و"على الرغم من مفارقة شخصية الرجل الصالح لشخصية موسى υ ، فإنها مفارقة مقابلة ومكملة: العلم البعيد المدى مقابل العلم القصير المدى، الحِلْمُ مقابل الاندفاع، التمهُّل مقابل الاستعجال، المعلم مقابل الاستاذ، وهذا يلبي الغرض الديني والفني في وقتٍ واحدٍ، ويرسخ انطباع الشخصيات في الذاكرة أيضاً" (الحسناوي، 2006، ص 104).

إنَّ العلم هو محور قصة موسى υ مع العبد الصالح، لكن لا يُعرَض العلم هنا مع ما يقابله من الجهل، كما كان الشأن في بقية قصص السورة ومقاطعها في عرض القيم الصحيحة وما يناقضها من القيم الزائفة، بل "إنَّ العلم يُعرَض هنا على أنه قيمة صحيحة، ولكن له مظهران: ظاهر، وخفي، وينبغي أن لا تحجبنا وسائلنا التي نطلع بواسطتها على الجانب النظري عن التسليم بوجود الخفي الذي أحاط الله سبحانه وتعالى به" (مسلم، 2009، ص 297)، فالعلم نوعان: علم الغيب الذي يُستمَّد من الوحي ويقوم بنشره الأنبياء والرسل، والعلم التجريبي الذي هو حصيلة تجارب البشر وخبراتهم على مرّ العصور، وأحدهما يقابل الآخر لا على سبيل التضاد، وإنما على سبيل التكامل بين ما هو غائب من القدر الالهي، وما هو مشهود من السنن الربانية، وعليه فإنَّ "المقابلة هنا في قصة موسى والخضر عليهما السلام ليست مقابلة بين قيم زائفة وأخرى حقة، كما كان الحال في قصة أصحاب الكهف وقصة صاحب الجنتين، بل المقابلة بين قيم صحيحة ظاهرة وقيم صحيحة أخرى غيبية في علم الله المحيط بالحقائق ومآل الأمور" (مسلم، 2009، 298).

ولا نعدم التضاد أيضاً بين السير في البحر مرةً والسير في البرّ مرة أخرى، كما أنّ التضاد قائم بين بقاء الأبوين ووفاة الولد حيناً ووفاة الوالد وبقاء الولدين حيناً آخر، وفي الأول كان الأبوان محط الرعاية والاهتمام وفي الثاني كان الولدان محلّ الرعاية والاهتمام، وفي القصة تضاد كذلك بين الحياة والموت، ذلك أنَّ الحوت كان ميتاً حين وُضِع في المكتل، ثم أصبح حيّاً لمّا جاءته نقطة من ماء الحياة فاتخذ في البحر سرباً، وفيها تضاد بين الإضرار مع الإحسان والإصلاح مع الإساءة، ذلك أنّ العبد الصالح في الحدث الأول عمد إلى لوحٍ من ألواح السفينة فنزعه وأضرَّ بها مع أنّ أصحاب السفينة أحسنوا إليهما، لأنهم حملوهما بغير أجرة كما نطقت بذلك الروايات الصحيحة، إذ ورد في الحديث الصحيح: "فانطلقَ الخَضِرُ وموسى يمشيان على ساحل البحر، فمرَّت بهما سفينةٌ، فكلَّماهم أن يحملُوهما فعرَفُوا الخضِرَ فحَملوهما بغير نَوْلٍ" والنولُ هو الأجر (مسلم، كتاب الفضائل، 2006، ص 1116)، وفي الحدث الثاني أتيا أهلَ قريةٍ لئاماً فاستطعما أهلها فأبوا أن يطعموهما وأساؤوا إليهما ومع ذلك عمد العبد الصالح إلى جدارٍ آيلٍ للسقوط فأقامه وأصلحه.

وفي قصة ذي القرنين عُقِد التضادُ بين موقع رحلتين اثنتين قام بهما ذو القرنين: رحلة جهادية دعوية إلى المغرب، تقابلها رحلة جهادية دعوية إلى المشرق، وفي الرحلة الأولى اتجه النص السردي إلى وصف البيئة الجغرافية وأثر الشمس في رؤية مشهدها وكيفية تعامل البطل الرئيس معها، وفي الرحلة الثانية عَمَد النصُ السردي إلى وصف البيئة جغرافياً أيضاً لكن بيّن أثر الشمس على ساكنيها وكيفية تعامل الأبطال الثانويين معها.

وفي الرحلة الثالثة إلى ما بين السدّين يتضح التضاد بين الاستضعاف في الأرض والاستكبار عليها، إذ وجد الملك العادل قوماً مستضعفين ومتخلفين يستغيثونه على المستكبرين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

والرحلة الثانية تقابل الرحلة الثالثة في سكون البطل وحركته، إذ يبدو البطل في الرحلة الثانية وكأنه يتفقد أحوال الرعية فقط ولا يتخذ أي إجراء، حيث لا يذكر النص القصصي أيّ ردّ فعلٍ له إزاء وصف القوم، بينما نراه في الرحلة الثالثة ينتفض لرفع الظلم عن المظلومين، ويتحرك حركة إيجابية بعيدة المدى قويةَ الأثر.

ثمَّ إنَّ التضاد قائمٌ كذلك بين طبيعة الآليات التي استعان بها ذو القرنين لتحقيق غاياته وأهدافه، حين جمع في رحلاته الجهادية ومشاريعه العمرانية بين الأخذ بظاهر الأسباب والأخذ بخفي الأسباب، أي جمع بين سنن الله الكونية وسنن الله الشرعية، إذ دعا إلى الإيمان والعمل الصالح وأقام العدلَ وحارب التخلف ومنع الظلم وذكّر بيوم القيامة، وكلّ ذلك من دواعي التمكين المعنوي، وفي المقابل لم ينسَ الاعتماد على الأسباب الظاهرة، إذ تحرَّك حركةً إيجابية في جميع الاتجاهات وأقام سدّاً منيعاً لردّ هجمات القبائل المتوحشة وحماية المستضعفين مستعيناً بالمال وبالخبرات الفنية وبسواعد الرجال الشجعان، وذلك كلّه من دواعي التمكين المادي.

ومن شواهد التضاد الخفي في السورة ما جاء في قوله تعالى: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) } (الكهف 18: ١٠٠ – ١٠١)، من المقابلة بين الإبصار والعمى، ذلك أنَّ عرض جهنم للكافرين يؤول إلى أنَّهم يشاهدونها يوم القيامة عياناً لا شكَّ فيه، جزاءً على ما كان على أعينهم من غطاءٍ معنوي أعماهم عن إبصار آيات الله وعجائب قدرته في الدنيا، يقول سيد قطب: "لقد نُزِع الغطاء عن أعينهم نزعاً، فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاءً وفاقاً، والتعبير ينسق بين الإعراض والعرض متقابلين في المشهد، متقابلين في الحركة على طريقة التناسق الفني في القرآن" (قطب، 2019، ص 631/4).

ذكر علماء التفسير ودارسو الإعجاز أنّ من عادات القرآن الأسلوبية أنه يقرن الإنذار بالبشارة، ويُتبِع مشهد العذاب بمشهد النعيم، ويأتي بالترغيب في إثر التهديد، وبوصف الجنة في إثر وصف النار، ويذكر الثواب من بعد العقاب، وينتقل بين الدنيا والآخرة على نحو عجيب يشعر المتلقي معه بفوات الفرصة واستحضار الألم أو استشعار اللذة، يقول ابن عاشور: "ذكر صاحبُ الكشاف وفخر الدين الرازي أنَّ من عادة القرآن أنَّه ما جاء بوعيدٍ إلا أعقبَهُ بوعدٍ، وما جاء بنذارةٍ إلا أعقبها ببشارة، ويكون ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض لمناسبة التضاد" (ابن عاشور، د. ت، ص 122/1)، ويُلحَظ أنه ربط هذا الاطراد الأسلوبي بآلية التضاد، أو قل إنْ شئتَ: إنه سمَّى هذا الاقترانَ تضاداً، ويقول أبو السعود: "جرتِ السنةُ الإلهية على شَفْع الوعدِ بالوعيد، مراعاةً لما تقتضيه الحكمة في إرشاد العباد، من الترغيب تارةً، والترهيب أخرى، والتبشير مرةً، والإنذار أخرى" (أبو السعود، د. ت، ص 122/1).

ولعلَّ أصحّ تعليلٍ لهذا الاقتران بالتضاد هو التعليل النفسي القائم على مراعاة النفس الإنسانية وتربيتها، يقول أحد المعاصرين: "إنك لا تجد آيةً في كتاب الله فيها الحديث عن الجنة ونعيمها وعن الصالحين وما أعدَّ اللهُ لهم من المثوبة، إلا وتجد من بعدها آيةً فيها الحديثُ عن النارِ وهولها وعن الكافرين وما أعدَّ الله لهم من العقوبة، ولا تكاد تجد في القرآن آيةً أو آيات انفردت بوصف الشدة أو الرخاء دون أن يكون إلى جانبها آية أو آيات فيها وصفُ الطرف الآخر، والحكمة في ذلك أن لا يرهب الإنسانُ رهبةً تقذف به إلى اليأس، ولا يرغب رغبةً تغريه بالقعود والكسل" (البوطي، 2003، ص 214).

ومن تطبيقات هذه العادة الأسلوبية في سورة الكهف ما نتلوه من قوله تعالى: { وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108) } (الكهف 18: ١٠٠ – ١٠٨).

وجه المناسبة بين المشهدين هو التضاد، ذلك أن الذهن حين يُورَد عليه عاقبةُ الكافرين ينتظر ورود الضدّ عليه من ذكر عاقبة المؤمنين، يقول ابن عطية: "لمَّا فرَغَ مِن ذِكْر الكَفَرَة والأَخْسَرينَ أَعْمَالاً، عقَّبَ بذكرِ حَالةِ المؤمنين ليظهرَ التبايُنُ، وفي هذا بعثُ النُّفُوس على اتِّباعِ الحَسَن القَويمِ" (ابن عطية، 2007، ص 667/5)، ويقول الرازي: "لَمَّا ذَكَرَ الْوَعِيدَ أَتْبَعَهُ بِالْوَعْدِ، وَلَمَّا ذَكَرَ فِي الْكُفَّارِ أَنَّ جَهَنَّمَ نُزُلُهُمْ، أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ مَا يُرَغِّبُ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ" (الرازي، 1420هـ، ص 502/21).

ومن جزئيات التضاد ولطائفه في الموضعين أنَّ النُزْلَ في الأول غيرُ النُزْل في الثاني، أي التضاد من خلال التشابه، لأنَّ السياق يفرض على الأول دلالة المفارقة التي تقوم بوظيفة التهكُّم ليتناسق الجزاء مع ما كانوا يستقبلون به آيات الله ورسله من الاستخفاف والسخرية في الدنيا.

ومن آخر ما نتمثل به من التضاد الخفي ما خُتِمتْ به السورة الكريمة: { **قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)** } (الكهف 18: 109 ــ 110).

إذ جاء التمثيل لإبراز المسافة الواسعة والفرق الهائل بين علم الله الواسع وما أوتي الإنسان من العلم القليل، حتى لو كان هذا الإنسان نبياً من أنبيائه، وفي ذلك ردٌّ على اليهود الذين حرَّضوا قريشاً على توجيه السؤال إلى النبي ρ تعنُّتاً وتحدِّياً من أجل الطعن والتشكيك في نبوته عن طريق اختبار علمه بأنباء ما قد سبق، وإنما جاء التمثيل بالبحر لأنه أوسع شيءٍ يستكثره ذهن الإنسان، فإذا تقاصر البحرُ مع سعته عن أن يبلغ مداد كلماته سبحانه فغيرُهُ أقصرُ وأقلّ، بل لا يُقاس به أصلاً، فهذا الختام "يصوّر العلمَ البشري المحدود بالقياس إلى العلم الإلهي الذي ليست له حدود، ويقرّبه إلى تصوّر البشر القاصر بمثالٍ محسوس على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير" (قطب، 2019، ص 634/4).

وإذا انتقلنا من التضاد الخفي في مستواه العمودي الإفرادي إلى مستواه الأفقي التعددي وجدنا السورةَ تستفيض برؤى جمالية مدهشة تشهد على جلال الإعجاز وتندُّ عن الاحتذاء، وكلُّ ذلك بجزئياته وتفاصيله يتفرَّع من الأصل الذي بُنيتْ عليه السورة كلها، وهو "أن سورة الكهف قصة الصراع بين النظرتين والعقيدتين والنفسيتين، صراعٌ بين الإيمان بالمادة وما يتبعها، وبين الإيمان بالغيب والإيمان بالله، وشرحٌ لما تتبع كلَّ نظرةٍ من العقيدة، والعمل الأخلاق، والنتائج والآثار، وتحذير من اتخاذ النظرة الأولى التي تؤمن بالمادة والظاهر، وتكفر بالله والغيب" (النَّدْوي، 2010، ص 159).

وأولّ ما نسطره من هذا الضرب من التضاد ما كان بين نموذج أصحاب الكهف ونموذج صاحب الجنتين من موقف مضاد من زينة الحياة الدنيا، تلك الفكرة الأساسية التي انتظمت في كثير من مقاطع السورة وأكَّد عليها المطلع تصريحاً بقوله: {**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا** } (الكهف 18: 7 ــ 8)، فكلتا القصتين تؤكد مفهوم نبذ الحياة الدنيا، لكنَّ طريقة العرض والتناول في القصة الثانية كانت باتجاه معاكس، "فإذا كان أهل الكهف يمثلون النموذج الإيجابي من حيث موقفهم من زينة الحياة الدنيا، فإنَّ صاحب الجنتين يمثل الموقف السلبي من حيث موقفه من زينة الحياة الدنيا، فأهل الكهف نبذوا زينة الحياة الدنيا بما فيها من نشوة الحكم، حيث كانوا من كبار موظفي الدولة، بينما لم ينْبِذ صاحبُ المزرعتين زينةَ الحياة الدنيا، بل تشبَّث بهذه الزينة إلى الدرجة التي شكَّك من خلالها حتى بقيام الساعة، حيث قال: {**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً** } (الكهف 18: 36)" (البستاني، 1423 هـ، ص 58/3 ـ 59).

وتتجانس القصتان من خلال التضاد أيضاً، التجانس في مشاركة الأرض والسماء، والتضاد بين ما أسفرت عنه كلُّ مشاركة من نتيجة تختلف عن الأخرى تمام الاختلاف، ذلك أنَّ السماء والأرض تعاونتا على تصوير مشهد التكريم والرعاية في قصة أصحاب الكهف، فأمرَتِ الأرضُ الكهفَ أن يتَّسع عليهم، فأصبحوا في نجوةٍ من الظلم، وفجوةٍ من المكان، ورضىً من الشعور، وأصدرتِ السماءُ أمراً إلى الشمس لإدخال النور اللازم واستبعاد الحرارة الزائدة، كلّ هذه العناية لأنهم تعاملوا مع زينة الحياة الدنيا تعاملاً واعياً جعلهم يجتازون الاختبار، وفي الطرف المقابل نجد أنَّ السماء والأرض تعاونتا أيضاً على تشكيل مشهد الدمار وإشاعة مشاعر الندم والذل والرعب، فأرسلتِ السماءُ عذاباً أو صاعقة على بستان الرجل المغرور فأحرقته وجعلته أرضاً تزلّ فيها الأقدام ولا ينبت فيها الثمر، وأمسكتِ الأرض ماءها، فلا يُستطاع تناوله ولا إرجاعه، فأصبحت محطَّمة خالية من آثار الجمال والثمار، لأنّ الرجل يتعاطى زينة الحياة الدنيا على نحو يخالف مبادئ الحق ويخالف حقيقة الدنيا.

ومن مظاهر التضاد بين قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ما كان من أمر الحاكم، فهو في القصة الأولى نموذجٌ للحاكم الظالم الذي استغلّ سلطته ونفوذه في قمع الصالحين وظلم الناس والدعوة إلى الشرك والانحلال الاخلاقي { **هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15)** } (الكهف 18: ١٥)، بعكس صورة الحاكم في

القصة الثانية، التي هي صورة للحاكم العادل المتعفِّف الذي استخدم سلطته وقوته في الدعوة إلى عقيدة التوحيد ونشر الخير ومنع الظلم ومحاربة المفسدين وبناء المشاريع العمرانية إقراراً بواجب الشكر لخالقه الذي مكّنه في الأرض وآتاه من كلّ شيء سبباً فأتبع سبباً.

وإذا كان بين القصتين تضادٌ بين الرعيةِ المظلومة، أصحابِ الكهف، والملكِ العادل ذي القرنين، فإنّ في ذلك إشارة إلى تضاد أعمق من أمر الدين الذي يبدأ عادةً بالاستضعاف وينتهي غالباً بالتمكين والاستخلاف، و"كما بدأت سورة الكهف بالاستضعاف والعزلة للفئة المؤمنة تنتهي بالقوة والتمكين وغلبة أمر الدين" (محمد، 2014 ، موقع البحوث العلمية على النت، بدون صفحة) على يد ذي القرنين، وفي ذلك تلميحٌ باستخلاف الإسلام في الأرض في النهاية مع ما كان عليه الرسول ρ وأصحابه من الاستضعاف وقلة العدد في البداية.

و(أصحاب الكهف) و(ذو القرنين) يتقابلان على أساس السمة الجماعية للشخصية الأولى والسمة الأحادية للشخصية الثانية، ويتقابلان في الغياب والحضور، ذلك أنَّ "شخصيات أهل الكهف وقد انعزلوا عن مسرح الحياة، يقابلهم ذو القرنين وقد حضر في مسرح الحياة على عكس أصحاب الكهف، إلا أنَّ كلّاً من عزلة أهل الكهف، وحضور ذي القرنين يصبّان في رافدٍ واحدٍ هو نبذ الحياة الدنيا، مع أنَّ أصحاب الكهف انزووا بين الجدران، وذا القرنين اخترق جدران الحياة جميعاً" (البستاني، 1423 هـ، ص 65/3 ـ 66).

ومؤدَّى ذلك أنَّ حركة أصحاب الكهف تمثِّل الهروب من الدنيا وزينتها، في حين تمثّل حركةُ ذي القرنين مواجهةَ الحياة وصعوباتها وإخضاع زينتها لعقيدته بكلِّ ما أوتي من قوة الإيمان وقوة العلم وقوة المال وقوة الجسد، كما يعني ذلك أنّ أهل الكهف لا يملكون سوى كهف يفقد أبسط مقوِّمات الحياة العادية، بينما ذو القرنين يملك كلَّ أسباب الرفاهية والسعادة، حيث بسط سلطانه على مشرق الأرض ومغربها، وهذا التضاد بين عزلة هؤلاء الشباب وغلبة هذا الحاكم وسيطرته على العالم كلّه "يمثّل وجهاً فنياً آخر من وجوه التقابل الهندسي في قصص سورة الكهف، ممّا يضخّم لدينا عنصرُ الاحساس الجمالي عنصرَ التذوق، عنصرَ الاستجابة الفنية حيال بناء قصصي محكم يتوفر على صياغة مختلفة في أسس التوازن والتوازي والتقابل بغيةَ تحقيق أشدّ فُرَص الإمتاعِ الفني للمتلقي، بما يصاحب فُرَص الإمتاع المذكور من مواجهة فكرية للموضوعات المتنوعة التي يستهدف النصُ إيصالها إلينا عبر الصياغة الجمالية المذكورة" (البستاني، 1428 هـ، ص 405/1).

بيدَ أن هذا التقابل لا يعني صراع الأضداد، وإنما يعني تكامل الأضداد، إذ أنَّ التمايز بين السلوكين المتناقضين لا يقودان إلى نتيجتين متنافرتين، وإنما ينتهي إلى نتيجة واحدة، وهي الاستجابة لأمر الخالق سبحانه في ترك الزينة، كلٌّ حسب ما يسمح به موقعه الاجتماعي ومحيطه السياسي وقدراته الذاتية، وهذا يُسمَّى في لغة النقد "الوحدة من خلال التضاد، أو التضاد من خلال الوحدة، أي وحدة سلوكهما العبادي من خلال التضاد بين العزلة والحضور، أو التضاد بين العزلة والحضور من خلال وحدة السلوك العبادي" (البستاني، 1423 هـ، ص 66/3).

ومما هو بهذا السبيل ما كان بين أصحاب الكهف ويأجوج ومأجوج من ثنائيات الإيمان والكفر، وقلة العدد وكثرته، والزمن الماضي والزمن المستقبل، ذلك أنَّ الأحاديث الصحيحة تشير إلى أنَّ "قوم يأجوج ومأجوج هم أكثر الأمم عدداً، وهم الذين يُكثرون الكفارَ في نار جهنم، وأنهم يخرجون قُبَيل قيام الساعة" (الخالدي 2015، ص 457، 460 ، وينظر: ابن عاشور، د. ت، ص 132/15)، وعليه فإن حادثة أصحاب الكهف قد وقعت في قديم الزمان وستقع حادثة يأجوج ومأجوج في آخر الزمان، حتى في موقع المصحف احتلَّت قصة هؤلاء الفتية بدايةَ السورة واحتلَّ حديثُ يأجوج ومأجوج خاتمةَ السورة، فيتناسب زمن الحدث مع موقع القصة في هيكل السورة، لكن يُلحَظ أن الحدثين يتجانسان في العزلة المكانية يتبعها الانفتاح، بيد أنهما يفترقان في النتيجة فينتهيان إلى التضاد، لأنَّ الحدثَ الأول ينفتح على صلاح الناس واعتناق عقيدة التوحيد بعد عقيدة الشرك، والحدث الثاني ينفتح على انتشار الفساد في الأرض وتغيير الأوضاع من الأحسن إلى الأسوأ.

وبعلاقة التضاد ترتبط قصة صاحب الجنتين بقصة ذي القرنين ارتباطاً عضوياً يقوم على تداخل الخطوط الهندسية ويستهدف إبراز الفارق بين الموقفين المتناقضين لتتمَّ الاستجابة تلقائياً للموقف الصحيح عبر تقديم المعطيات الجمالية ضمن شبكة من المعطيات الفكرية والعقدية، ذلك أنَّ المبنى الهندسي لقصة ذي القرنين من حيث صلتها بقصة صاحب الجنتين "يتحدَّد بوضوحٍ حينما نقف على هذا التوازن والتقابل بين شخصيتين تمثلان بطلين لقصتين مختلفتين تعالج كلٌّ واحدة منهما موقفاً متميزاً كلَّ التمايز عن الآخر، تعالج الأولى بطلاً عادياً تبهره زينة الحياة الدنيا، مع أنه لا يملك منها إلا مزرعتين ومجموعة أفراد، وتعالج الثانية بطلاً لا تقعده زينة الحياة الدنيا عن وظيفته الأساس في الحياة، مع أنه يملك الدنيا كلَّها مشرقاً ومغرباً، ويملك رقاب الآدميين كلهم" (البستاني، 1428 هـ، ص 404/1).

ويتَّضح ذلك أكثر إذا علمنا أن كلام صاحب الجنتين يشتمل من الوجهة النفسية على جملة انفعالات سلبية من الغرور والطيش والعجب، مما دفعه إلى الطغيان وتحقير صاحبه المؤمن الفقير والتباهي بماله وعزّه وتوهم بقاء النِّعَم والتشبث بالزينة والتشكيك باليوم الآخر، في حين يشتمل خطاب ذي القرنين على التواضع والاستسلام لله والترفع عن الطمع والإعراض عن زينة الحياة الدنيا وربط الأسباب بخالقها وردّ الأمور إليه { **قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)** } (الكهف 18: 98)، وبموازنة هذا الخطاب الذي يشبه المناجاة أو الحوار الداخلي مع حديث الرجل الغني البطران: {**أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا** ً (الكهف 18: 34)، { **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36)**} (الكهف 18: 36)، يظهر الفارق الحادّ في تباين النظرتين وتضاد الموقفين إلى أبعد الحدود.

وبهذا نرى أنَّ الشخصيتين تقفان على طرفي نقيض على عدة مستويات أهمها: أنَّ صاحب الجنتين لا يملك إلا مساحةً صغيرة من الأرض، وذا القرنين يملك مشرق الأرض ومغربها، لكن الأول زيّنت له نفسُه مزرعتَه الصغيرة حتى بلغ حدَّ الطغيان والتشكيك، في حين لم يكن ذو القرنين لتبطره الجيوش الجرارة التي كانت تحت إمرته والأقاليم التي فتحها بقوته فحسب، بل زاده ذلك تواضعاً لله ونطقاً بشكره وتوفيقه وخدمةً للفقراء والضعفاء، كان صاحب الجنتين بمواقفه السلبية قولاً وسلوكاً سبباً في إبادة جنتيه عن بكرة أبيه، أما ذو القرنين فكان بموقفه الإيجابي من الزينة وباتباعه الأسباب الشرعية والكونية سبباً في اتساع رقعة مملكته، فصار النجاح حليفه في الاختبار بفتنة المال وبفتنة السلطة.

ولعلاقة التضاد القائم على ثنائية الخفاء والتجلّي فاعلية فنية في إحكام الصلة العضوية المتنامية بين قصة موسى والعبد الصالح وقصة ذي القرنين، إذ هناك "تقابلٌ هندسي بين ذي القرنين وبين شخصية العالِمِ الذي تعلَّمَ موسى υ منه، فالعالِمُ يختفي عن الأنظار، بينما يبرز ذو القرنين على المسرح من حيث تحديد هويتهما، إلا أنَّ كليهما يمثّل الطواف حول العالَمِ، على العكس من أصحاب الكهف فيما جسَّدوا عملية الثبات في الكهف" (البستاني، 1423 هـ، ص 66/3).

هذا من حيث طبيعة الشخصيتين وهويتهما الاجتماعية، أمَّا من حيث طبيعة المعرفة العلمية لهما فيمثِّل كلٌّ منهما طرفين من العلم يتقابلان في الاتجاه والإجراء ويتفقان في الغاية والنتيجة، بل يستكمل أحدهما الآخر، ذلك أنَّ العلم بالغيب ورفع الستار عن معرفة بعض أسراره يمثّل محور قصة موسى υ مع العبد الصالح، بينما يمثّل العلم التجريبي الظاهري الذي هو حصيلة خبرات الإنسان وتجاربه واستغلال طاقاته محور قصة ذي القرنين، فَغيرُ واحدٍ من المفسرين قالوا في تفسير قوله تعالى: {وآتَيناهُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ سَبباً } "أي آتيناه علماً وفهماً يتوصَّل به إلى معرفة الأشياء" (الكلبي، 2013، ص 909/2، والطبري، 2000، ص 94/18، والقرطبي 2006، ص 368/13)، أو "آتيناه من كلِّ شيءٍ ما يُتوصَّل به إلى المقصود من علمٍ أو قدرةٍ أو آلةٍ" (الآلوسي، 2010، ص 549/15، والرازي، 1420 هـ، ص 495/21)، وفي شأن العبد الصالح قال: {وعلَّمناه من لدُنَّا علماً}، والمعنى: "علّمناه علماً لا يُكتنَهُ كنهُهُ ولا يقادر قدرُه، وهو علمُ الغيوبِ وأسرارُ العلومِ الخفية" (الآلوسي، 2010، ص 456/15)، إذن علم العبد الصالح يغلب عليه طابع العلم الباطن أو العلم اللدُّني الخاص الذي يدقّ ويخفى، لأنه يُستَمدّ من عالم الغيب، وعلم ذي القرنين يُحكَم عليه بالعلم الظاهري الذي يؤخذ من علوم الشريعة ومن التعرف على سنن الله في الكون.

ولعلّ من أبعد آفاق التضاد وألطفه في سورة الكهف ما كان بين الأزمنة، ذلك أنَّ هذه السورة من أولها إلى آخرها تسير على خطين متوازيين: أحدهما خطُّ الخطاب القرآني الموجَّه إلى الرسول ρ وإلى العصبة المؤمنة معه في العهد المكي، والآخر خطُّ القصص والأمثال والمشاهد، وتسويغه الفني في عملية التوازي والاتصال هو التقرير والتثبيت والتسلية، فالخط الأول زمنه هو زمن البعثة النبوية، وفي سياق النص القرآني هو زمن الحاضر، والخط الثاني يتضمن عدداً من الأزمنة والعوالم: الماضي والحاضر والمستقبل، عالم الغيب وعالم الشهادة.

قصةُ أهل الكهف هي ماضٍ من الحياة الدنيا، ومثلها قصة الخلق الأول وقصة موسى υ مع العبد الصالح وقصة ذي القرنين، أما مشاهد القيامة والجنة والنار، فزمنها مستقبل بالنسبة إلى الحياة الدنيا، وهي أيضاً من عالم الغيب، بالنسبة إلى الحياة الدنيا، التي هي عالم الشهادة، على أنَّ المسألة ليست مسألة فنية بحتة فحسب، وإنما الأثر النفسي الذي يتركه هذا التقابل والتداخل بين الأزمنة والعوالم، حين يجتمع في الخط الأول الحاضر الدنيوي وحده، وهو زمن الصراع مع الشرك، تصغيراً لمساحته، وحين تقابله في القصص والأمثال الأزمنة كلُّها، انسجاماً مع مساحتها الكبيرة، من ماضي الغيب السحيق، حتى مستقبل الغيب الأبدي (الحسناوي، 2006، ص 81، 85 ـ 86)، والأمثال المضروبة ومشاهد الطبيعة زمنها افتراضي ينفتح على كلّ الأزمنة.

ومن تضاد الأزمنة ما نجده بين زمن السرد وزمن القصة في قوله تعالى: { **وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ** } (الكهف 18: 18)، إذ استعمل التعبير القرآني اسمَ الفاعل العامل في معموله، ومعلوم أنَّ المشتقَّ العاملَ يدلُّ على زمن الحال والاستقبال، وزمن

القصة ضاربٌ قي أعماق الماضي، فكان يتسَّق معه نحوياً إضافة المشتقِّ إلى معموله، لأنَّ المشتقَّ المضاف يدلُّ على زمن الماضي، وللبلاغيين تعليل لطيف لهذا العدول النحوي التركيبي، وهو استحضار الصورة الماضية ودفع المتلقي إلى قلب الحدث لكي يعيش مع أجوائه ويتفاعل مع حيثياته.

من ذلك كلّه نخلص إلى أنَّ التضاد عنصرٌ جمالي بارز في سورة الكهف يتظافر مع آلياتٍ أسلوبية أخرى على تحقيق وحدة السورة وتماسكها، إلى جانب دوره في إنتاج دلالات أدبية تتماشى مع الهدف الديني في كثير من المواضع، وبهذا يلتقي الدين بالفن على أنهما يهدفان إلى إحداث أثرٍ واحدٍ في تربية النفس وتهذيب الانسان ذوقاً وسلوكاً.

نتائج البحث

في إثْرِ التنقيب الجادّ والسعي المستفيض في رحاب سورة الكهف بحثاً عن التضاد وأنماطه ودلالاته انتهينا إلى نتائج أهمها:

ــ التضاد عنصرٌ بنائي وجمالي في سورة الكهف ينتظم محاور السورة جميعاً.

ــ في ضوء هذه الدراسة وأمثالها ينبغي مراجعة مبحث التضاد في خارطة البلاغة والنقد في التراث العربي من أجل توسيع الرؤية في قراءة أنماطه وتتبع أبنيته وربطه بالدلالة المحورية وبالسياق اللغوي العام.

ــ قد يتحكم عنصرُ المجاورة في تشكيل التضاد اللفظي البسيط، وقد يتدخل عنصر التباعد في تأطيره، بيد أن دلالة الشمول والإحاطة تغلب على الأول، بينما ينفتح الثاني على دلالات نفسية وجمالية يفرضها السياق ويحددها قرائن الأحوال.

ــ قد يكون الغرض من إجراء التضاد إبرازَ التباين وتصويرَ الهُوَّةِ الواسعة بين المتناقضين حتى يظهر الموقفُ الصحيح جلياً بارزاً للعيان، فيسهل على المتلقي اتباعه وتعديل سلوكه في ضوئه.

ــ يتطلب استخراج التضاد الخفي المركَّب من المتلقي لطفاً في التأمل وعمقاً في القراءة، وهو أمتعُ للذوق وأقوى تأثيراً في النفس من التضاد البسيط، ونسبته العددية في سورة الكهف أعلى من نسبة التضاد اللفظي البسيط، ومردُّه في اعتقادي إلى أنَّ خط الصراع بين الخير والشرّ حاضرٌ بقوة في محاور السورة جميعاً حتى لو لم يكن في شكل الصراع البحت.

ــ التضاد المركَّب الخفي قد يكون في قصة بعينها، أو في موضوع واحد فقط، بين الشخصيات أو الأحداث أو الأزمان أو المشاهد، وقد يكون في القصص أو في الموضوعات بين متناقضاتها المذكورة، على مستوى السورة كلّها، ولا يخفى ما في ذلك من إحكام الربط وجماليات التناسب بين محاور السورة على تعدّد موضوعاتها وتنوّع مقاصدها.

ــ إذا كان التضاد مشهدياً وفي حوار جدلي يسبّب غالباً في احتدام الصراع وفي توتر الموقف الدرامي.

ــ غالباً ما يتجسّد التضاد في الصراع الجدلي بين الأطراف المتناقضة، وهو يمثل النزاع الأبدي بين الخير والشر، أو بين الحق والباطل.

ــ من التضاد الخفي في سورة الكهف ما قد ينتهي إلى صراع الأضداد، ومنه ما قد يؤدي إلى صراع التكامل، مما يجعل الطرفين المتناقضين يستكمل أحدهما الآخر في توافق وانسجام.

المصادر والمراجع

ــ الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبدالله (2010 م)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق: رضوان مامو وجماعة من المختصين، ط1، بيروت ــ لبنان: مؤسسة الرسالة.

ــ ابن عاشور ، محمد الطاهر(د . ت)، **تفسير التحرير والتنوير**، ط1، بيروت: مؤسسة التاريخ.

ــ ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب المحاربي الغرناطي الأندلسي (2007 مـ)، **المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، التحقيق: الرحلة الفاروق، والسيد عبد العال السيد ابراهيم، وعبدالله ابراهيم الانصاري، ومحمد الشافعي الصادق العناني، ط2، دولة قطر: مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.

ــ أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي الأندلسي الغرناطي (2015 مـ)، **البحر المحيط**، تحقيق: محمد أنس الخن وجماعة من المختصين، ط1، دمشق، ولبنان: الرسالة العالمية.

ــ أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (د .ت)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، د. ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ــ أبو ديب، كمال، (1987)، **في الشعرية**، ط1، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

ــ إيغلتون، تيري، (1995)، **نظرية الأدب**، ترجمة: ثائر أديب، د.ط، دمشق: منشورات وزارة الثقافة السورية.

ــ البستاني، د. محمود عبد الحسين، (1423 هـ) **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، ط1، ايران ـ مشهد: مجمع البحوث الإسلامية.

ــ البستاني، د. محمود عبد الحسين، (1428 هـ) ، **قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً**، ط2، إيران ـ قم: مؤسسة السِبْطَين العالمية.

ــ البوطي، د. محمد سعيد رمضان، (2003 م)، **من روائع القرآن ــ تأملات علمية وأدبية في كتاب الله**، ط1، بيروت ـ لبنان: مؤسسة الرسالة.

ــ الحسناوي، محمد، (2006 م)، **دراسة جمالية بيانية في أربع سور: الإسراء ــ الكهف ــ مريم ــ طه**، ط1، الأردن ـ عمان: دار عمار.

ـ حمودة، د. عبد العزيز، (1998 م)، **المرايا المحدبة ـ من البنيوية الى التفكيك**، د. ط، الكويت: عالم المعرفة، مطابع الرسالة.
ـ الخالدي، د. صلاح عبد الفتاح، (2015 هـ)، **مع قصص السابقين في القرآن الكريم**، ط6، دمشق: دار القلم.
ـ الرازي، فخر الدين (1420 هـ)، **مفاتيح الغيب**، ط3، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
ـ الزمخشري، محمود بن عمر (2012 م)، **الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل**، تحقيق: الشربيني شريرة، د. ط، القاهرة: دار الحديث.
ـ الساحلي، محمد بن علي، (1998 م)، **ألوان البديع في ضوء الطبائع الفنية**، د. ط، القاهرة: جامعة الأزهر.
ـ الطبري، محمد بن جرير (2000 م)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة.
ـ عبد العال، محمد قطب، (1998 م)، **نظرات في قصص القرآن**، ، د. ط، السنة السابعة، العدد 77: رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة.
ـ عتيق، عبد العزيز (1985 م)، **في البلاغة العربية ـ علم البديع**، ط1، بيروت: دار النهضة العربية.
ـ القرطبي، محمد بن أحمد (2006 م)، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد أنس مصطفى الخن ومحمد معتز كريم الدين،ط1، بيروت ـ لبنان: مؤسسة الرسالة.
ـ قطب، سيد (2006 م)، **التصوير الفني في القرآن**، ط18، القاهرة: دار الشروق.
ـ قطب، سيد (ت 2019 م)، **في ظلال القرآن**، ط1، تركيا ـ اسطنبول: دار الأصول العلمية.
ـ الكلبي، محمد بن أحمد بن جُزَيّ الغرناطي (2013 هـ)، **التسهيل لعلوم التنزيل**، تحقيق: أ. د. محمد بن سيدي محمد مولاي، ط1، الكويت: دار الضياء.
ـ محمد، أبو محمد آدم حامد، (2014 م)، **التربية الدعوية للفرد من خلال سورة الكهف**، موقع البحوث العلمية في التربية الدعوية، الرابط: a01234563.blogspot.com، تاريخ الزيارة: 18/ 3/ 2020.
ـ مسلم، أبو الحسن بن الحجاج القشيري النيسابوري (2006 م)، **صحيح مسلم**، ط1، الرياض: دار طيبة.
ـ مسلم، د. مصطفى، (2009 م)، **مباحث في التفسير الموضوعي**، ط7، دمشق: دار القلم.
ـ النَّدوي، أبو الحسن علي الحسني (2010 م)، **دراسات قرآنية**، جمع وتقديم: سيد عبد الماجد الغوري، ط2، دمشق: دار ابن كثير.

دژ یەك لەسورەتی (کهف)دا
جۆرەکانی وواتاکانی

صالح ملا عزيز
بەشی زمانی عەرەبی ـ کۆلیژی پەروەردە /زانکۆی سەلاحەدین ـ هەولیر

پوختە

ئەم تویژینەوە لیکۆلینەوەیەکی ئەدەبییە لە سورەتی (کهف)دا، کەتەرخان کراوە بۆ باس کردنی دیاردەی دژ یەك لەسورەتی ناوبراودا، کە دیاردەیەکی هونەری وجوانکارییە، بابەتەکە وای پیویست کردووە کە پیك بیت لە دەسپیکیك و دوو تەوەرە ودەرئەنجامیك، لە دەسپیکەکەدا باسی رۆل و کاریگەری دژ یەك کراوە لە دیدی رەخنەگرانی سەردەمدا، دواتر لە تەوەری یەکەمدا باسی جۆری یەکەمی دژ یەك کراوە کە ئەویش خۆی لە دژ یەکی ووشەیی سادەدا دەبینیتەوە، هەرچی تەوەری دووەمیشە باس لە لەدژ یەکی شاراوەی تیکهەلکیش دەکات، هەموو ئەمانە بەدیدیکی ئەدەبی وهونەری ورەوانبیژی شیکردنەوەیان بۆ کراوە لە دەقە قورئانییەکاندا، کۆتایی تویژینەوەکەش بە دەرئەنجامیك هاتووە کە تیایدا هەموو ئەو دەرئەنجامانە خراوەتەروو کە تویژینەوەکە پیی گەیشتووە.

ووشەگرنگەکان: قورئانی پیرۆز، سورەتی کهف، چیرۆکی قورئانی، واتاکان وئاماژەکان.

Contradiction in Surat Al-Kahf : Its Patterns and Implications

Salih Mala Aziz
Department of Arabic - College of Education / Salahaddin University-Erbil

Abstract

This paper, which is an aesthetic study in Surat Al-Kahf, reflects a stylistic phenomenon that has its value in coloring the discourse with a literary feature that increases the energy of suggestion (revelation) and reduces the energy of declarations, which is the phenomenon of antithesis in its patterns and indications. Accordingly, this scientific study is divided into two parts which are preceded by an introduction and followed by the results. The introduction summarizes the role of antithesis and its effectiveness in contemporary literary and critical studies. The first part reviews the simple verbal contrast through analyzing its evidence in Surat Al-Kahf and extracting its connotations and revelations whereas the second part goes into the detail of the compound hidden contrast via coming horizontally across its models in the surah. The study arrives at the most important results at the end.

Keywords: Quran ,antithesis, Surat Al-Kahf, significance, Storise.